الإنسان الكامل عند الجيلى

للاستاذ عبد اللطيف محمد العبدى

تعرضت فى العدد الماضى لنظرية الإنسان الكامل عند الجيلى ، وتعرفنا إلى أهم خصائص تلك النظرية ، وهى تبين لنا إلى أى حد قد تأثر فيها « عبد الكريم الجيلى » بالشيخ الأكبر « ابن عربى » ، فقد استلهم الجيلى منه نظريته فى وحدة الوجود ونظريته فى الإنسان الكامل ، وشاركه القول فى نظريات أخرى مثل القول بوحدة الأديان . فالصلة بين الجيلى والشيخ الأكبر وثيقة جداً . ولهذا عد الجيلى من أكبر شراحه وتابعه فى العصر المتأخر . وعلى هذا يعد ابن عربى المصدر المباشر لنظريات الجيلى ، وما عداه من مصادر فهى ثانوية وغير مباشرة .

ونحن نريد الآن أن نتعرف إلى بعض هذه المصادر التى ذهب الباحثون والمستشرقون إلى رد هذه النظرية إليها ، وسوف نقصر الحديث على بعضها دون أن نعرض لها جميعها . وأهم هذه المصادر هو نظرية الفيوضات عند « أفلوطين » . فقد لعبت هذه النظرية دوراً كبيراً فى الفكر الإسلامى ، وكان لها تأثيرها فى كثير من الفلاسفة الإسلاميين والصوفية . وهى تذهب إلى أن « الواحد » أو المبدأ الأول يصدر عنه حين يعلم ذاته « العقل » أو المبدأ الثانى ، وعنه تصدر النفس الكلية مصدر الكثرة والتعدد فى العالمين الروحى والمادى . والحقيقة المحمدية ، حقيقة الإنسان الكامل ، تشبه العقل عند أفلوطين ، فهى أول فيض صدر عن الحق ، وأول موجود كان فى الخلق ، ثم عنها صدرت سائر الموجودات والتعينات ، ويقول الجيلى فى ذلك « أن الطلسم القطبى الذى هو محور فلك الأنموذج ، وقطب رحا الأنموذجات أول الطلسمات ، وبه قامت صور النفس » (ج ١ : ص ١٠) .

فالحقيقة المحمدية شبيهة بالعقل عند الأفلاطونية المحدثة إلى حد كبير ؟ ومن ناحيه أخرى تذهب الأفلاطونية المحدثة إلى أن « الحق » حينما عرف ذاته ، وانعكس على نفسه فاض عنه « العقل » ، وكذلك العقل حين يتأمل فى ذاته ويرتد إلى نفسه يصدر عنه النفس الكلية . . وهذه نقطة ذهب إليها الصوفية فيما بعد ،

فالله أحب أن يعرف ، والله تعالى حين علم نفسه علم العالم ، تخرج على الصورة كما يذهب إلى ذلك ابن عربى فى كتابه « عقلة المستوفز » . فالخلق أو الصدور إنما ينبثق عن المعرفة الذاتية للحق ، وهو وليد ارتداد الوعى أو العلم الإلهى على نفسه . ونحن نجد ثمة شبهاً قوياً بين هذا القول وبين ما قال به فيما بعد الفيلسوف الألمانى « هيجل » فالفكر أو المطلق عند هيجل يمر فى مراحل ثلاث ، يكون فى الأولى محاطاً بنوع من الغموض والسكون ، أى يكون فى داخل ذاته ، ثم حين يتأمل ذاته ، وينعكس الوعى على نفسه يصدر عنه الطبيعة ، وهى بمثابة النقيض للحالة الأولى ، حالة السكون التى لا تلبث أن تظهر وتخرج إلى الأعيان ، ثم يأتى بعد ذلك « المركب » الذى يجمع بين الوعى والطبيعه أو الخارج ، ويؤلف بين الفكر والطبيعة ، فيغدو الفكر وهو أكثر ملاء وأشد ثراء .

وتبدو هذه النظرية الهجليه أشد قربا وتشابها بنظرية الجيلى فى التجليات الإلهية . فالذات تكون فى أولى مراحلها فيما يسميه الجيلى « العماء » ، وهو يقصد به البساطة والتجرد التام عن جميع النسب والصفات ، ثم تتنزل من هذه البساطة ، وتخرج عن ذلك التجريد حتى يصبح الوجود المطلق عاقلا ومعقولا ، فتتجلى الذات على المخلوقات كل بقدر طاقته واستعداده لقبول التجليلات الإلهية .

* * *

غير أن الجيلى حين يصف لنا حقيقة الإنسان الكامل يتضح لنا من هذا الوصف تلك الوظيفة الدينية والميتافيزيقية لذلك الإنسان . فهو من ناحية يمثل الواسطة التى يصدر عنها الخلق ، وتفيض الصور والتعينات على الموجودات العلوية والسفلية ، ومن ناحية أخرى يعتبر الإنسان الكامل حقيقة مزدوجة الأطراف تجمع بين الحق والخلق ، تتصف بالصفات الإلهية ، وتختص بالخصائص الخلقية .

وإذا نظرنا إلى ذلك لوجدنا شبها قويا بين ما يطلق عليه الجيلى الإنسان « الكامل » وبين ما يطلق عليه المسيحيون اسم « الكلمة الإلهية » ، فإذا كانت « الحقيقة المحمدية » هى المصدر والأصل فى الأشياء جميعا ، وهى الروح السارى فى المخلوقات ، والحافظ للوجود ، وهى التى تتشخص فى النبى عليه السلام أو الولى الكامل ، فإن وجه الشبه يبدو قويا بين هذا الفهم وبين ما ذهب إليه القديس يوحنا والقديس بولس وعلماء اللاهوت المتأخرين من المسيحيين .

« فالكلمة المسيحية هى ابن الله وصورته ، والواسطة فى خلق العالم ، والروح السارى فى الكون ، المفيض للحياة والنور . وهى كذلك تظهر فى أتباع المسيح وتمدهم بالعلم والمعرفة[1] » وكذلك « الحقيقة المحمدية » عند الجيلى ، خلقها الله على صورته ، وعلى صورتها كان العالم ، وعنها صدرت المخلوقات ، وهى الحافظ عليه ، ولولاها لخرب العالم وأتى عليه الفساد . وهى مفيضة العلم والمعرفة فى قلب كل ولى ، ولازالت تظهر على مر العصور فى صور الأولياء الكاملين .

وحسبنا هذا عن مصادر تلك النظرية ، وإن كان ثمة أوجه شبه أخرى بينها وبين مصادر يهودية وفارسية من ناحية ، ومصادر شيعية واسماعيلية من ناحية أخرى .

***

هذا هو الإنسان الكامل عند الجيلى ، ذلك الإنسان الذى بلغ أرقى مايصل إليه الصوفى ، فتحقق بالتجليات الإلهية ، وسار فى الطريق إلى نهايته ، حتى بلغ مرتبة الفناء فى الله ، تلك المرتبة التى يطمح إليها كل صوفى . وعند الجيلى — كصوفى من أتباع وحدة الوجود — يكون الفناء عن كل ماعدا الله ، سواء الوجود أو الشهود أو الإرادة . وهذا هو الدور الذى يلعبه الفناء عند الصوفية من أمثال ابن عربى والقائلين بمذهب الوحدة الوجودية .

فالفناء هو غاية الصوفى ، ويتحقق الصوفى بذلك حين يدرك الوحدة الذاتية القائمة بينه وبين الحق ، ويعبر جلال الدين الرومى عن ذلك فيقول : « إن المسجد الذى بنى فى قلوب أولياء الله معبد للجميع لأن الله فيه » ويعبر أيضا عن تلك الوحدة القائمة بين العبد والرب ، أو بين الإنسان الكامل وبين الحق ، فى تصويره لقصة أبا يزيد البسطامى الذى خرج يوما إلى الحج فلقيه القطب فى الطريق ، وأمره بالعودة قائلا له :[2] »

إن الله هو ما تراه فى بعين قلبك . . لأنه اختارنى بيتا له

فثمة وحدة يستشعرها الصوفى الكامل بينه وبين الحق ، ومصدر هذه الوحدة هو ما تحقق به الإنسان الكامل من التجليات الإلهية . فكما له قائم على كمال معرفته بتلك التجليات ومن ثم معرفته بالحق واتحاده به اتحاداً يغنيه عن كل ماسواه .

---

(١) ابن القارض والحب الإلهى للدكتور مصطفى حلمى . ص : ٢٧٧ .
(٢) نيكولسون : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص : ١٥٧

وكما يقول نيكولسون ليس مقصود الصوفية من ذلك التشبه بالله أو المشاركة بشخصه فى الطبيعة الإلهية ، بل أن يهرب من حجاز ذاتيته الباطلة ، حتى يتاتى له الاتحاد ثانية بالواحد الموجود المطلق . ومن هنا تبدو لنا « الأنا » أو الذات لا حقيقة لها بذاتها ، وهى لا تعدو أن تكون رسما فى الكلام ، أو نوع من خداع النفس . ومن هنا يتضح لنا أن الإنسان الكامل حتى يصل إلى كماله ، وحتى يتحقق بذلك الكمال إنما سبيله إلى الفناء فى الله ، بل الفناء هو السبيل وهو الغاية فى نفس الوقت . وهو حين يتحقق بإحدى تلك التجليات إنما يصطلم تحت ذلك التجلى فإذا كان المتجلى به عليه صفة ما فنى عما عداها من صفات عبدية ، ونسبت إليه هذه الصفة وهكذا فى سائر الصفات حتى يبلغها جميعا .

ومذهب كهذا يجد أشد أنواع النقد من فيلسوف « كإقبال » . فإقبال شيد بناء فلسفته على ما أسماه « بالذاتية » أو « خودى » وهو يعنى بها المركز الشعورى للحياة الذى يجمع شتات الأفكار والعواطف والرغبات ، وهى حين تتجلى فى الإنسان تسمى « ذاتا » أو « أنا » . وكل ما فى الحياة هو ذوات مفردة ، وليس ثمة مجال للكلية أو الوحدة .

وسوف نعرض فى أعداد قادمة لفلسفة إقبال فى « الذاتية » ، ونرى كيف كانت رد فعل للفلسفة الهجلية وفلسفات وحدة الوجود ، ونتبين فى غضون هذا كيف شاد نظريته فى الإنسان الكامل على أساس هذه الفلسفة .

« يتبع »